المرأة كما يريدها الاسلام

للاستاذ أبو الوفا المراغى

قضية المرأة فى مصر قديمة يتطاول تاريخها الى أربعين سنة مضت أعنى إلى أوائل القرن العشرين . وهى قضية شغلت الكتاب والمؤلفين ورجال الدين والصحافة والرأى العام طوال هذه الحقبه . وهى قضية غريبة تشتد فيها الخصومة حتى تشعل نارها ثم تخمد على أن تعود مرة أخرى أشد ما تكون اشتعالا . ولما يفصل فى هذه القضية وقد يطول عرضها حتى يفصل فيها وسيكون الزمن والتطورات العالمية من عوامل التعجيل للفصل فيها . ولنا بعلم الخطوات السريعة التى قطعتها فى هذا الطريق بفضل الظروف التى ولدتها الحرب العالمية الماضية . وقد كان مبعث هذه القضية سوء الحالة التى كانت عليها المرأة وما كانت تقضى به عليها التقاليد من ملازمة البيت والحرمان من الاشتراك فى الشئون العامة التى كانت وقفا على الرجل يعالجها بانفراد .

ولعلنا نذكر كيف كان المجتمع المصرى يرى أن تعليم البنت من المحنات التى يلحق عارها الأسرة كلها وقد اضطرت نظارة المعارف فى وقت ما الى اغلاق بعض مدارس البنات بالأقاليم برغم توسلها الى اجتذاب البنات اليها بوسائل شتى ولا يزال لهذه الحالة بعض الآثار المصرية وخصوصا أرياف الصعيد .

وكان مبعثها أيضا ما وصلت اليه المرأة فى الأمم الغربية من الرقى وما حصلت عليه من الحقوق الاجتماعية والسياسية ، يضاف الى هذين السببين ما كان بين مصر والأمم الغربية من الاتصال العلمى والسياسى بواسطة البعثات العلمية والوفود السياسية ووفود السياحة ، فقد مهد هذا الاتصال لبعض المصريين أن يلاحظوا ويقارنوا ويفاضلوا بين المرأة المصرية وأختها الأوربية ، وبين المجتمع المصرى والمجتمعات الأوربية وأن يرجعوا سر هذه المفاضلة الى حالة المرأة هنا وهناك ، وقد وقف المصريون إزاء هذه القضية طائفتين طائفة الأنصار وطائفة المعارضين وقد تمثلت طائفة الأنصار فى زعيمها المرحوم قاسم بك أمين فكان محامیها المدره وبطلها المغوار ولا تذكر النهضة النسائية إلا مقرونة باسم قاسم أمين وجهاد قاسم أمين ومن خير ما تركه قاسم أمين رمزا على جهاده وتوفيقه فى هذه القضية كتاباه المرأة الجديدة وتحرير المرأة ، وفى هذين الكتابين تمثلت خصومة قاسم أمين قوية جريئة ، وتمثلت طائفة المعارضين فى الأستاذ فريد وجدى بك وبعض المتشددين من رجال الدين ، ومن مؤلفاته فيها " المرأة المسلمة " ولهم مقالات طويلة فى الصحف والمجلات ، ولقد كانت كلتا الطائفتين تسرف فى خصومتها وتستنجد بالسلطات القائمة وتستفيث بالرأى العام .

ومهما يكن من شيء فقد نجحت المرأة فى قضيتها وحصلت على حقوق كثيرة وصار مألوفا ما كان يعتبر منها شاذا غريبا. سفرت المرأة وكان حجابها كثيفا. تعلمت وكان تعليمها غريبا. وعرفتها المنابر والصحف كاتبة وخطيبة. وحصلت على أعلى الشهادات. وزاحمت فى الوظائف العامة وفى الأعمال الحرة. وشاركت الرجل أو بعبارة أدق كادت تنفرد بادارة البيت وتدبير العيش وتربية الأبناء، ولها رأيها فى مستقبلها وزيها وخروجها ورياضتها وهى شديدة الحرص على احترامه والدفاع وأصبح لها النفوذ الأدبى والسياسى وصار لها هيئات تمثلها وتعبر عن رغباتها، وتسعى فى تحقيقها.

نجحت المرأة فى قضيتها وكسبت هذه الحقوق وغيرها وهل نجح المجتمع بنجاحها وهل أفاد منها كما أفادت منه لذلك حديث خاص وفى هذا المعترك المتجدد حول هذه القضية ينبغى أن يذكر هؤلاء الخصوم بموقف الشريعة الاسلامية منها وعندنا أن موقف الشريعة الصريح مجردا عن التأويل والتعصب والهوى فيه الرضا لهؤلاء إن كانوا منصفين.

ولا شك أن الشريعة الاسلامية أعلت من قدر المرأة ما لم تعله شريعة سماوية أخرى ولا قانون وضعى ورفعت مكانتها وأحلتها المحل اللائق بها كانسان يحس ويشعر له حقوق يتمتع بها وعليه واجبات يؤديها ومنحتها من الحقوق ما لم تمنحها شريعة ولا قانون وساوتها بالرجل إلا فيما تأباه طبيعتها وتقصر عنه بفطرتها، قال تعالى " يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير " وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إنما النساء شقائق الرجال. وقد تعبدها الله بالتكاليف وشرفها بالخطاب كما تعبد الرجل وشرفه ووعدها المثوبة والحياة الطيبة (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة. ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقد أنكرت عليها بعض القوانين الرومانية إنسانيتها وأنكرت عليها أخرى حريتها وأهدرت شعورها. تذكر كتب التاريخ انه قد اجتمع فى رومية مجمع كبير فى القرن السابع وبحث فى شئون المرأة فقرر أنها كائن لا نفس له وأنها لن ترث الحياة الأخروية لهذه العلة وأنها رجس يجب ألا تأكل اللحم وألا تضحك بل ولا أن تتكلم وعليها أن تمضى جميع أوقاتها فى الصلاة والعبادة والخدمة ولأجل أن يمنعوها الكلام جعلوا على فمها قفلا فكانت المرأة من أعلى الأسر وأدناها تسير فى الطرقات وفى فمها قفل وتروح وتغدو فى دارها وفى فمها قفل.

وهذا غير العقوبات البدنية التى كانت تعرض لها المرأة باعتبار أنها أداة الإغواء وآلة التسويل ويستخدمها الشيطان لإفساد القلوب.

وكانت تضعها التقاليد العربية موضع البهائم تورث مع ماشية زوجها وتجبر على الفسق والفجور وفى القرآن الكريم (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) وكان العربى يستخذى لولادتها (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون)

هـذا مكان المرأة من بعض القوانين والتقاليد ، وذلك مكانها من الشريعة الإسلامية . ومنه نعرف كيف أعزت الشريعة الإسلامية المرأة وأخذت بيدها وجعلتها ركنا فى كيان المجتمع الانسانى ، تشترك مع الرجل اشتراكا صحيحا فى تهذيبه والنهوض به فى مدارج الرفعة ومنازل الكمال .

والإسلام الذى أخذ بيد المرأة فأنزلها مواطن الكرامة وصحح وضعها فى الجماعة الإنسانية يريدها حيث وضعها وفى الحدود التى رسمها متمتعة بحقوقها قائمة على واجباتها فتتعلم من العلم ما شاءت مما يصلحها فى دينها ودنياها ويبصرها بشؤون عاجلتها وأخراها وهو لا يندبها الى العلم بل يفرضه عليها فرضا (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وهو لا يقصرها على لون منه دون لون ، وكثيرا ما جلست الى رسول الله صلى الله عليه وسلم متعلمة وكان يتخولها بالحكمة والموعظة وطلبت منه أن يجعل لها يوما خاصا ليعلمها وأجابها الى طلبها . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال النساء للنبى صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك نوعدهن يوما لقيهم فيه فيعظهن وأمرهن . وعن عائشة رضى الله عنها (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين) وفضلها فى تعليم الدين وحفظ الحديث وروايتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استفاضت به كتب التاريخ وحسب العالمات فى الفخر بالعلم والتعليم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها الذى يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء (يعنى عائشة) وهناك مؤلفات خاصة بالراويات للتحديث عن رسول الله والمرأة فى أشد الحاجة الى التعليم وبخاصة التعليم الذى يتصل بوظيفتها فى الحياة كوالدة ومربية ومدبرة لبيت ، وهل هناك مجال للجدل فى حاجة المرأة الى تعليم شىء من علوم الصحة والاقتصاد وتدبير المنزل لتكون قادرة على القيام بما هيئته لها الطبيعية وظروف الحياة .

وفرض لها الاسلام نصيبا فى الميراث وأباح لها أن تملك ما تستطيع من المال بسائر أنواع التملك وتثمره بالمشروع من طرق الاستغلال ورشحها للوظائف العامة ان توافرت لها الكفاية كما رشح الرجل حتى باب القضاء وهو أخطر الوظائف قد فتحه أمامها إلا أنه أخرج من اختصاصها بعض المواد وحرمها من الحكومة فيها وجعل لها أن تساهم فى الدفاع عن الأمة وترافق الجيوش مواسية مداوية مطعمة ساقية . وفى صحيح مسلم عن أم عطيه (غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وكنت أخلفهم فى رحالهم وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى) ولها أن تؤمن المستأمن وتجير الخائف . وعن أم هانىء قالت أجرت رجلا من أحمائى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أجرنا من أجرتى) ولها على زوجها حسن العشرة والانفاق بالمعروف (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا

وخياركم خياركم لأهله وأنا خيركم لأهلى وما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم) وفى خطبة الوداع (الا أن حقهن عليكم أن تحسنوا اليهن فى كسوتهن واطعامهن) .

ومن لطيف ما نهجه الاسلام فى حسن المعاشرة . ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (يا بنى اذا دخلت على أهلك فسلم وليكن سلامك بركة عليك وعلى أهلك) وعن ابن عباس و (إنى لا تزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى) .

ولها رأيها فى تزويجها وليس لوليها أن يعدو اذنها ويقصرها على من لا تريد إن كانت رشيدة . وفى النسائى عن عائشة رضى الله عنها (إن فتاة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم ان أبى زوجنى من ابن أخيه يرفع بى خسيسته وأنا كارهة فارسل النبى الى أبيها فجاء فجعل الأمر اليها فقالت يارسول الله إنى قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء) .

وحاط سيرتها بسياج التوقير والاحترام ولعن الخائض فيها فى الدنيا والآخرة (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) .

جعل الإسلام للمرأة هذه الحقوق وجعل عليها بإزائها واجبات وليس هناك حق إلا و يقابله واجب وواجبات المرأة كثيرة وخطرة فواجبات نحو ربها وواجبات نحو بنيها وواجبات نحو زوجها وواجبات نحو الجماعة ، فواجباتها نحو ربها أن تطيعه فيما أمر به ونهى عنه فتصلى وتصوم وتزكى إن أيسرت وتحج إن استطاعت وتجتنب الدس والسخرية وتتبع العورات وتلقط الأخبار والدخول فيما لا يعنى ، و إغراء الرجال بها ولكن كثيرا من النساء قد فرطن فى هذه الواجبات حتى ليخال لنا من حالهن أنهن يحسبن أن هذه الواجبات إنما تعبد بها الرجال دونهن أو إنهن إنما يتعبدن بها إذا صرن الى الكهولة ودلفن الى النهاية أما فى ميعة الشباب وريعان الصبا فلا عليهن أن تخففن منها قضاء لداعى اللهو والمتاع ، وأن كثيرا من الرجال يعانون فى رياضة أزواجهم نحو هذه الواجبات ليبرءوا من مسئولية التقصير وقلما يوفقون الى هذه الغاية ، و واجبات المرأة نحو زوجها أن تطيعه إلا فيما نهى الله وأن تقف عند رأيه وتحترمه وتحافظ على ماله فلا تتصرف إلا بإذنه وتحرص على سمعته فتسمو بها عن متناول الألسن ومواطن الشبهات وتتعاون هى وزوجها على تحمل أعباء العيش وأثقال الحياة فلا ترهقه بالمطالب ولا تقعد به عن أداء واجب وتشعره بمعنى قوله تعالى (ومن اياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم (لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) وعنه قيل يا رسول الله ، أى النساء خير . قال (التى تسره إذا نظر إليها وتطيعه إذا أمرها ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره) وعن أبى الورد بن تمامة قال . قال على كرم الله وجهه لابن أعبد (ألا أحدثك عنى وعن فاطمة بنت رسول الله وكانت من أحب أهله عليه قلت

بلى . قال : إنها جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها واستقت بالقربة حتى أثرت فى نحرها وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها فاتى النبى صلى الله عليه وسلم بخدم فقلت لها : لو أتيت أباك فسألته خادما فأتته فوجدت عنده أحداثا فرجعت فأتاها من الغد فقال ما كانت حاجتك فسكتت فقلت أنا أحدثك يارسول لله إنها جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها ، فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك تسألك خادما يقيها حر ما هى فيه فقال : اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعملى عمل أهلك .

وفى خبر عن أسماء أنها سألت النبى عما ينقص النسوة عن الرجال فى ثواب الجمع والجماعات وعيادة المريض والجهاد فقال لها : إن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله .

وواجبات المرأة نحو بنيها أن تقوم عليهم بالتربية وحسن الرعاية وتغرس فيهم بسيرتها وقولها الفضائل وتجنبهم بسيرتها وقولها أيضا الرذائل . والأم المعلم الأول للطفل وللشعب .

والأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

وبقدر توفيق المرأة فى إعداد الطفل بحسن التربية وتزويده بأسباب الكمال يكون توفيقها فى خدمة الشعب و إعداده للكمال ، وفى الحديث (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها .

وواجبات المرأة نحو المجتمع أن تحسن التمتع بحقوقها والقيام بواجباتها التى أسلفنا الحديث عنها فإنها إذا وفقت إلى ذلك ساهمت فى بناء مجتمع صالح يظله الوئام وهذا مايريده الإسلام من المرأة فلا يريدها إلا آخذة بحقوقها ، قائمة بواجباتها فى الحدود التى رسمها لتتعاون هى والرجل فى تكوين جماعة إسلامية صالحة ، ولكن المرأة الإسلامية الآن ليست كما يريدها الإسلام ، فقد تعدت فظلمت نفسها وزجها وأسرتها وأمها واستهانت بحقوق هولاء جميعا سلكت سبيل التقليد وأولعت بالمودات المرذولة فى الزينة واللباس ، وهانت لديها الأخلاق الدينية والعادات القومية فثقل مكانها فى الأمة وقلاها الأهل والأنصار ، وزهد فيها راغبوا الزواج وأعقبت الأمة مشاكل متلاحقة : فمشكلة للزواج ، وأخرى للطلاق ، وثالثة للتبرج والاستهتار ... ... الى مشاكل أخرى بمثابة الذيول لهذه المشاكل: كالسرقة والقتل ، وشرب الخمر ، وتبديد الأموال .

سلمت منها الجماعة الإسلامية الأولى بصلاح المرأة وتقاها فصح جسمها وقوى ركنها فعزت وسادت وكانت قدوة المقتدين وعبرة المعتبرين .

أبو الوفا مصطفى المراغى
أمين المكتبة الأزهرية